المشروع يوفر الدعم المادي اللازم ، ولكن..

هل يقبل المعلمون والمعلمات بالتغيير؟

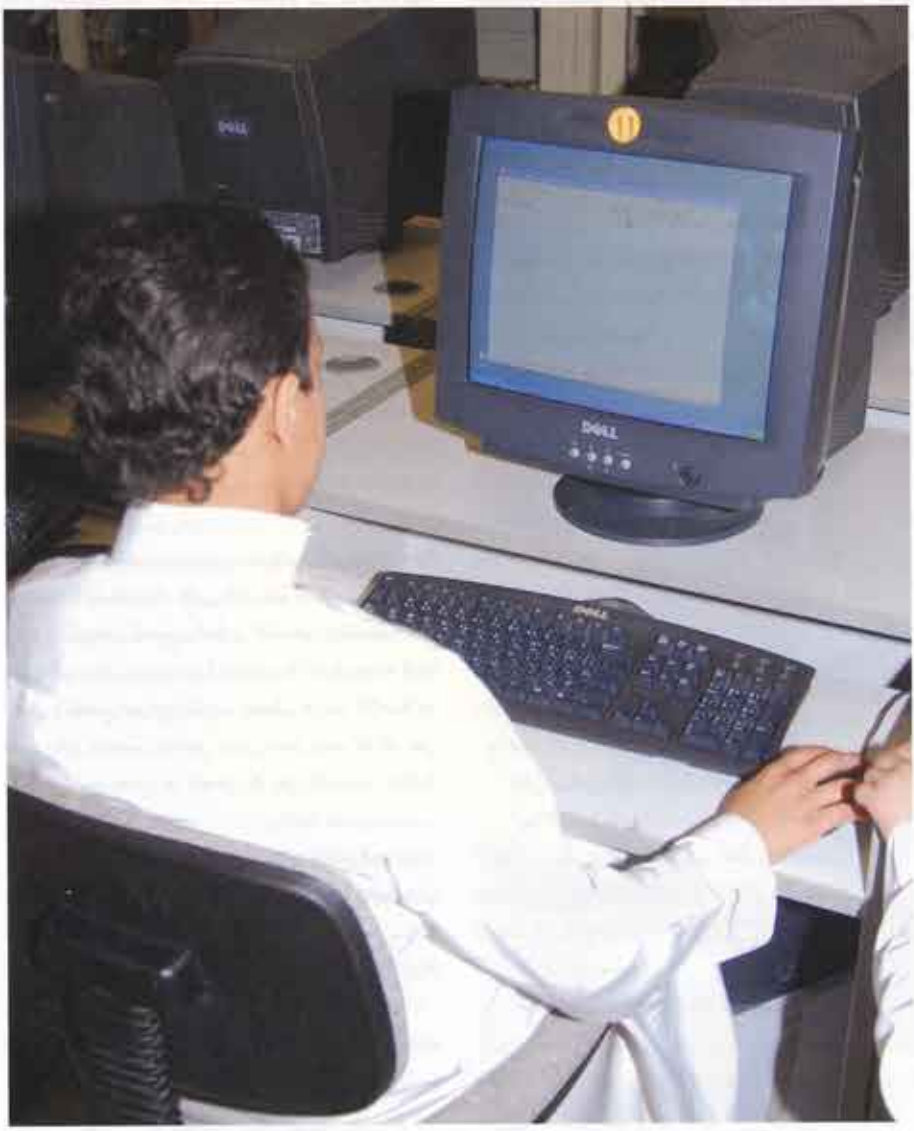

د. فوزية البكر * - الرياض

أخذ مشروع الملك عبدالله موضوع تحسين البيئة التعليمية كأحد الأسس الرئيسة لتطوير منظومة التعليم العام. ولكي ندرك حجم أهمية هذا العامل علينا فقط تخيل ما يحدث في الفصول الدراسية كل يوم. (وهم المستهلكون الحقيقيون لهذا التعليم) يصطفون في صبر وجلد داخل فصول تم تنظيمها على هيئة صفوف متتالية مهمتها الأساسية هي الجلوس في هدوء وصبر والاستماع للحكواتي يلقي ويلقي ما شاء من الحكايات المملة. وما دور الطلاب والطالبات في ذلك التلقي؟ السلبية الذهنية والجسدية والتحليق في فضاء خيالاتهم الواسعة للهرب من أصوات مفرغة هي صوت المعلم المتردد الذي لا يمت لواقعهم بصلة!

وفي مناخ تعليمي كهذا تصبح الخصائص الواضحة للبيئة التعليمية هي الآتي:

- الطلبة أوان فارغة يتم حشوها بالمعلومات.
- الطلبة (وبشكل سلبي) يستوعبون المعلومات ويتم اختبارهم فيها وليس في تعلمهم منها.
- الطلبة يتعلمون بناء على مناهج محددة لا تتغير مهما تغيرت التكنولوجيا أو تطور العلم.
- المعلمون ملزمون بنوع محدد من المعلومات لنقلها واختبار الطلبة فيها.

هذا يذكرنا بفلسفة باول فيراري الشهيرة حول تعليم المقهورين ومفهوم التعليم البنكي الذي يسيطر على البيئة التعليمية لدينا إلى حد كبير، وهو ما جاء مشروع الملك عبدالله لتطوير التعليم للتخلص منه للانتقال بالفصول وبمناخات التعلم إلى ما تفرضه شروط التعلم في القرن الواحد والعشرين.

باربا مينز (Barbara Means) في دراستها للبيئة التعليمية (١٩٩٣م) تحدد سبع خصائص تميز ما يمكن تسميته ببيئة التعلم الذكية المتفاعلة وهي الآتي:

- مشاركة الطلاب تفاعلية بعضهم مع بعض ومع معلميهم ومبنية على مشاركة واعية منهم ومنظمة من قبل المعلم.
- يعمل الطلبة على تحديات ومشكلات متنوعة كل حسب اهتمامه أو حاجته وتحت إشراف من المعلمين.
- يوزع الطلبة ضمن مجموعات التعلم التعاوني على أسس تربوية وعلمية متنوعة.
- يتعلم الطلبة من خلال الاكتشاف.
- المعلم موجه وموفر للنشاطات والمشكلات المختلفة.
- القياس والتقويم مبني على ما تعلمه الطلبة فعلاً من خلال خبراتهم التعليمية التي ينزرعون فيها وليس من خلال مناهج وملخصات يتم حفظها وتلقينها.

البيئات التعليمية المتفاعلة هي التحدي الذي يواجه هذا المشروع الذي سيعمل على تحقيق بعض هذه الشروط من خلال توفير المتطلبات التقنية من: أجهزة حاسب، وسبورات تفاعلية، وأجهزة عرض، وشبكات اتصال محلية وخارجية بحيث يتم ربط كافة المدارس بخطوط اتصال رقمية عالية السرعة، وتوفير خدمات الإنترنت داخل المدارس مع الخوادم اللازمة، وتوفير أجهزة حاسب محمولة لكل معلم للقيام بأعمال تحضير وإعداد الدروس.

والفرض هو توفير بيئة تفاعلية، وفصول افتراضية، وبريد إلكتروني، واتصال مباشر، واتصال عن بعد، ومواد تعليمية فورية وعالمية،

* أستاذ مشارك في كلية التربية، جامعة الملك سعود.

وحضور اللقاءات والمؤتمرات عن بعد، ومواد علمية إلكترونية، واتصال بين المدرسة والمنزل والوزارة وكافة مؤسسات المجتمع. وكل هذه المكونات هو ما يميز الأنظمة التعليمية في هذا القرن.

إلى جانب ذلك فمن المتوقع أن يقوم البرنامج بتغيير البيئة الصفية من حيث التنظيم والوظائف، بحيث يتم إعادة تشكيل هذه البيئة بالطريقة التي تتيح أكبر نسبة تفاعل للطلبة فيما بينهم ومع معلميهم.

وفي حين يبدو هذا كله جميلاً وممكناً طالما توفرت التسهيلات المالية التي يوفرها مشروع بهذا الحجم، إلا أن الصعوبة الحقيقية تأتي من حقيقة أن العامل الفاعل لإحداث التغيير لا يتوقف فقط على

توفير المتطلبات المادية، وإنما يكمن في قدرة البرنامج التطويري على إقناع المعلمين والمعلمات بتغيير (بل وقلب) مفاهيمهم الفلسفية التي تقوم عليها افتراضاتهم وممارساتهم التدرسية والتربوية.

ولذا فإنه من المهم وبدرجة عالية إدراك أهمية أن يعي المعلمون ضرورة التغيير في فلسفة التعليم وليس فقط في الأدوات المادية المتاحة داخل الفصل، إذ قد تستخدم هذه الإمكانات مرة أخرى لتأكيد أساليب التعلم التقليدية، وبذا لا يتحقق ما نتوقعه من التعليم الذي نرغب أن نراه قادرًا على تحطيم البنى الفكرية التقليدية والتلقينية والحافظة وتغييرها إلى بنى فكرية متفاعلة وناقدة ومتسائلة تحقق الشروط الأساسية لإنسان القرن الواحد والعشرين. ولن يحدث ذلك حتى يعي المعلم دوره كموجه وكداعم وليس كمدرس وملقن.

البيئة التعليمية هي جملة من الظروف المادية والتدريسية تتعلق الظروف المادية منها بتصميم المكان الذي يشغله الصف، والمبنى المدرسي، ونوع المواد والأجهزة والتقنيات والمصادر التعليمية المتوافرة، وبالمتغيرات الطبيعية التي يتصف بها الصف (من درجة حرارة وإضاءة ورطوبة وما إلى ذلك). أما الظروف التدريسية فتشمل أفعال المعلمين ونشاطهم التعليمي داخل غرف الصف التي يتم تنظيمها لتحقيق أعلى درجة من التفاعل التعليمي بين الطلاب ومعلميهم وبين الأنشطة التعليمية والواجبات والمهارات التي يعمل الطلبة عليها داخل الفصول أو المعامل أو المسارح.

ومن الواضح أن مثل هذه البيئات تتطلب الكثير سواء تعلق ذلك بالمباني المدرسية (التي نكاد نجمع على أنها اليوم ليست في أحسن حال)، أو الفصول الدراسية وإمكاناتها أو البنى التحتية الإلكترونية للمدارس، أو لأوضاع المعلمين الذين خصص مشروع الملك عبدالله الجزء الأكبر من إيراداته للرفع من قدراتهم وتدريبهم لمواجهة التحديات التي يفرضها القرن الواحد والعشرون.

إنه تحد حقيقي يواجه المشتغلين على المشروع، وهو في نفس الوقت ضرورة تبعث الأمل في كل والد ووالدة وفي كل تربوي بأننا وفي نهاية المطاف نعمل بكل جهدنا للحاق بالركب.